

سياسة الخوف دراسة البعثية عند كنعان مكية مقاربة فلسفية

م.د. قيس ناصر راهي

جامعة البصرة

مركز دراسات البصرة والخليج العربي

qais_nasir@yahoo.com

الملخص :

يهدف البحث الى دراسة سياسة الخوف في الدولة العراقية ما قبل ٢٠٠٣ م من خلال كتاب مكية جمهورية الخوف، إذ يعدّ كنعان مكية احد أبرز من درس ممارسة النظام البعثي في العراق، لقد سعى الباحث في دراسته الى الوقوف على ما يؤلف بين العناصر المختلفة لكل تلك الممارسات، وهذا اولاً. أما ثانياً، فالسعي الى الوقوف عند أهمية دراسة قدرات مكية في فهم نصوص فلسفية أو أدبية قد افاد منها في دراسته، ولعل ابرز تلك النصوص، هي: اللفيثان ل هوبز، اسس التوتاليتارية ل ارندت، معذبو الارض ل فانون، فضلاً عن مستوطنة العقاب ل كافكا. أما ثالثاً، فلم يكتف الباحث بدراسة التفاعل بين كل تلك النصوص، إنما حاول الوقوف عند معرفة دور العنف والجماهير في تفعيل سياسة الخوف، وما انتجته تلك السياسة من انسان جديد.

الكلمات المفتاح: سياسة الخوف، اللفيثان، الشمولية، مستوطنة العقاب، العنف، الجماهير .

المقدمة :-

توجد عدة دراسات قُدمت ومازالت تُقدّم عن النازية والستالينية بوصفهما نظاماً قد مارست القمع، وربما لم تتوقف تلك الدراسات الى لحظة كتابة هذا البحث وهذا ما يُحسب للفكر الغربي، فدراسة الماضي معرفياً يساهم الى حدٍ ما بمنع الوقوع في اخطائه مرة أخرى، لكن في العراق فإن الدراسات التي تتصف بالتحليل العلمي والمعرفي عن البعثية التي اقامت نظاماً شبيهاً بالنظم الشمولية الأخرى مثل النازية والستالينية محدودة جداً، وربما هذا ما يتحمله الباحثون . إن الكتابة عن البعثية وجرائمها في ظل حكمها يفترض أن تحفز الآخرين للكتابة عنها بعد انهيارها، وذلك لمستجدات الوثائق التي توفرت لاحقاً، إلا إن حتى مؤلف جمهورية الخوف لم يقم باعادة الكتابة، بل إنه قدم دراسة أخرى عن واقع العراق مابعد ٢٠٠٣م- تحديداً في كتاب الفتنة- ذلك الواقع الذي يمكن أن يوصف بنسبة كبيرة بأنه نتيجة لفعل البعثية إذا أخذت بأنها مسؤولة بجزء ما عن قيم الخراب الظاهرة في البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة العراقية ما بعد ٢٠٠٣م .

يُعدّ كنعان مكية احد أبرز من درس ممارسة النظام البعثي في العراق، فقد سعى في دراسته الى الوقوف على ما يؤلف بين العناصر المختلفة لكل تلك الممارسات. وعلى الرغم من سرده لعدة قصص تشير لقسوة النظام، وفي الوقت نفسه تشي بضرورة ارشفة تلك الممارسات إلا إن ذلك لا يثير القارئ لنص جمهورية الخوف وفق ادوات فلسفية بقدر ما تثيره ممارسة مكية في فهم تلك الممارسات، وهذا ما اشتغل عليه الباحث في دراسته، التي حاول فيها تشكيل دراسة محايدة لنص جمهورية الخوف، لذا فإن دراسته لهذا النص -أي الباحث- تنطلق من القول بأن لنص مكية قيمة تستحق التقدير والاحترام من خلال الجهد الكبير المتمثل بأرشفة ما جرى وهذا أولاً.

أما ثانياً، فالسعي الى الوقوف عند أهمية دراسة قدرات مكية في فهم نصوص فلسفية أو ادبية قد افاد منها في دراسته، ليس كل النصوص بالتأكيد، إنما تلك النصوص الواضحة حين قراءة نص مكية ومن شدة وضوحها ربما قد اختفت عن عين القارئ، وبعض هذه النصوص قد اشار إليها مكية وأخرى لم يشر إليها، رغم حضورها اللافت وهذا ما ادركه الباحث. ولعل ابرز تلك النصوص، هي: اللفيثان ل هوبز (Thomas Hobbes) (١٥٨٨م -١٦٧٩م)، اسس التوتاليتارية ل حنه ارندت (Hannah Arendt) (١٩٠٦م -١٩٧٥م)، معذبو الارض ل فرانز فانون (Frantz Fanon) (١٩٢٥م -١٩٦١م)، فضلاً عن مستوطنة العقاب ل فرانس كافكا (Franz Kafka) (١٨٨٣م -١٩٢٤م).

أما ثالثاً، فلم يكتف الباحث بدراسة التفاعل بين كل تلك النصوص السابقة الذكر، إنما حاول الوقوف عند مقارنة بعض الآراء الفلسفية مع آراء مكية لمعرفة دور العنف والجماهير في تفعيل سياسة الخوف، وما انتجته تلك السياسة من انسان جديد. ويجب الأخذ بنظر الاعتبار الجانب التطوري، بمعنى آخر، إن حصلت قطيعة في الجانب السياسي، فهل حصلت قطيعة مع ما هو سائد قبل وبعد ٢٠٠٣ م على الجماهير والافراد؟ وإن لم تحصل فالنتيجة ستكون مشوهة للنظام السياسي الذي من خلاله يُحكم العراق الراهن .

ومما اثار دهشة الباحث بأن نص جمهورية الخوف لم يُدرس، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ما كُتب عن المؤلف (معرفياً) الشيء القليل، على الرغم من إن كتاباته قد حققت حضوراً في الاوساط الثقافية العربية وحتى العالمية - بل إن اغلب نصوصه كانت موجهة لمتلق غربي - والحضور لا يعني القبول إنما الرفض احياناً، وهذا ما حصل مع كتابه القسوة والصمت، حين فضح زيف العديد من متقفي العرب. لكن أن لا يثير ما كتبه مكية الباحثين العراقيين، فهذا موضوع آخر يدعو للاستغراب. ويرجع الباحث ذلك لعدة اسباب، ويلتمس لبعضهم العذر من عدم دراسته، ربما يرجع ذلك الى المنطلق الايديولوجي أو إن بعضهم قد وقع تحت تأثير ادوارد سعيد، ولاسيما إن مكية كان الصوت الآخر المغاير لسعيد فيما يتعلق

بالشأن العراقي وهذا ما اثار جدلاً في الاوساط الاكاديمية الاميركية، أو ربما يكون نتيجة لبدانة السرد الذي يحتويه النص، لكن هذه البدانة ضرورية في ارشفة قصص الخوف. وبالتأكيد ليست هذه كل الاسباب، فربما توجد اسباب اخرى يجهلها الباحث .

أولاً- سياسة الخوف :-

لم تكن عبارة سياسة الخوف من صناعة الباحث فهي رائجة الاستعمال في العالم الناطق للغة الانجليزية، وإن قل استعمالها في العالم العربي. ويرتبط البحث في الخوف بالاشتغال الفلسفي من خلال المعنى الأخلاقي، وإن اضفى عليه هوبز طابعاً سياسياً ودوراً مهماً في تشكل الدول، ولاسيما دولة اللفيثان، وهذا ناتج عن العلاقة بين الأخلاق والسياسة .

لقد جاء معنى الخوف اصطلاحياً في المعجم الفلسفي لـ جميل صليبا بأنه: "انفعال نفساني يعرض عن تصور شر قريب الوقوع"^(١). وقد ذكر ابن مسكويه إن الخوف الشديد من امراض النفس، وأنه ينتج من توقع مكروه وانتظار محذور، والتوقع والانتظار إنما يكونان للحوادث في الزمان المستقبل، وقد ناقش مسكويه اسبابه ومعالجته من منظور أخلاقي^(٢). ووضح مما تم ذكره إن معنى الخوف يرتبط بالأخلاق وهذا ما يتبين كذلك مع هوبز، ولاسيما في الجزء المتعلق في الانسان، إذ قال: "الخوف من قوة غير مرئية يختلقها العقل، أو يتخيلها انطلاقا من حكايات مسموح بها في العن، يسمى ديناً، فإذا لم تكن الحكايات مسموحاً بها، يسمى خرافة. وحين تكون القوة المتخيلة حقيقة كما نتخيلها، يسمى الأمر ديناً حقيقياً. الخوف دون ادراك السبب والموضوع يسمى هلعاً"^(٣).

أما عن الخوف السياسي فإنه لا يُعد خارجاً عن نطاق السياسة، بل هو اداة سياسية، أداة حكم النخبة أو من يعارضها، وذلك لأن الخوف يساعدهم على تحقيق هدف سياسي محدد، فضلاً عن إنه يعكس المعتقدات السياسية والأخلاقية أو كلاهما^(٤).

أما عن سياسة الخوف فيمكن أن يشكلها السياسي وهذا يتبعه بعض السياسيين حتى الوقت الراهن، إذ سابقاً قد وظفت في اميركا زمن جوزيف مكارثي (Joseph McCarthy) (١٩٠٨م-١٩٥٧م) للتخويف من خطر الشمولية، وقد عمل على حشد الجماهير خارج حدود المؤسسات الاجتماعية والسياسية التقليدية^(٥). وحالياً هذه السياسة يستعملها بعض السياسيين الغرب لصناعة خوف من المهاجرين، أو من الخطر الاسلامي كما تفعله بعض المؤسسات وما بات يعرف بالاسلام فوبيا بشكل خاص. أما عن شكل سياسة الخوف موضع البحث هنا، فتتعلق ليس بتخويف الناس من خطر متوقع، إنما عن صناعة انسان خائف، فقد نجح كنعان مكية بانتاج ارشفة لشكل قسوة نظام البعث في العراق ومساهمته في تشكيل جمهوريته التي عبر عنها مكية بأنها (جمهورية الخوف). وقد ساهمت دراسته بتكوين رؤية ليس للرأي العام العراقي الذي عاش تلك القسوة، بل للرأي العام العالمي، إذ قال: "طور

البعثيون سياسة الخوف الى ما يشبه الصيغة المخادعة بحيث تخدم في النهاية الغاية المنشودة لشرعنة حكمهم من خلال جعل اعداد كبيرة من الناس مشاركين في عنف النظام^(٦). وهذه نقطة مهمة يفترض التوقف عندها، فالعنف الذي هو أداة لسياسة الخوف، لم يقف عند حدود من يصنعه، بل حتى المُعْتَف قد ساهم بصناعته . وقبل الكشف عن المقاربات بين كتاب جمهورية الخوف والنصوص الأخرى لا بأس من توضيح مغزى الكتاب الذي يلخصه مكية بالقول: "يدور كتاب جمهورية الخوف في المقام الأول، حول قصص الرعب هذه التي تحولت لتصبح هي القاعدة في أحد اركان العالم المسمى خطأ بالعالم الثالث"^(٧). ودراسة لـ حكم قد سيطر على الدولة من خلال الخوف، وفي هذا السياق يقول مكية: "في هذا العالم، اصبح المواطن النموذجي مخبراً. وشغلت الاكاذيب والتقصي الخطاب الشعبي الى حد الاستغناء عن أي شيء آخر. إن الخوف كما يحتاج الكتاب، لم يكن أمراً ثانوياً أو عرضياً، مثلما في اغلب الدول العادية، بل اصبح الخوف جزءاً تكوينياً من مكونات الأمة العراقية"^(٨). وختام هذا الجزء من البحث، من المشروع طرح السؤال الآتي من المتلقي الفلسفي، ما علاقة الفلسفة بهكذا نوع من هذه الدراسات والجواب هنا وفق ما ورد في مقدمة كتاب السياسة لـ ارسطو، التي تقول: "في علم السياسة كما في كل علم آخر لا يوجد إلا منهجان ممكنان: فإما أن يصدر المرء عن المبادئ العقلية ليحكم على الحوادث وينظمها، وإما أن يصدر عن الحوادث المفسرة تفسيراً مناسباً ليضع منها مبادئ"^(٩). وهذه الاجابة تضع القارئ امام حقيقة واضحة للعيان، ويمكن القول إن ارسطو من خلال نص السياسة الذي يمتاز بالاصالة والمعاصرة، قد انسجم مع نص القول السابق، وهذا أولاً، أما ثانياً، فإن الباحث سيتعرض الى المرتكزات الفلسفية في فهم هكذا نظم من خلال مقارنة نص مكية مع نصوص فلسفية تحتل موقعاً مركزياً في الفهم السياسي، ويحركه في تلك المقاربات نص جمهورية الخوف نفسه، سواءً أكانت تلك المقاربات التي تشتغل وفق ما لَمَح إليه مؤلف نص جمهورية الخوف أم ما صرح به .

ثانياً- جمهورية الخوف واللفيathan:-

لقد تمت الإشارة في بداية البحث الى إن للخوف عند هوبز معنيان، الأول أخلاقي تم الحديث عنه سابقاً، والآخر سياسي يرتبط بمفهوم الدولة، التي يقول عنها: "هي التي تكتسب فيها السلطة المطلقة بواسطة القوة، وتكتسب بالقوة عندما يعمد الاشخاص، بصفة فردية أو جماعية بغالبية الاصوات، خوفاً من الموت أو من السجن، إلى اجازة كل افعال هذا الرجل أو تلك المجموعة، فيضعون حياتهم وحريتهم تحت سلطتهم"^(١٠)، وهذا القول يعني إن الخوف السياسي سبب رئيس لتشكيل دولة اللفيathan، ولكن ما الذي تعنيه دولة اللفيathan؟، تعني دولة اللفيathan: "نوع من وحدة الجميع الفعلية في شخص واحد، قائمة بموجب اتفاقية كل فرد مع

كل فرد، كما لو كان كل فرد يقول للآخر: انني اخول هذا الرجل أو هذه المجموعة من الرجال، واتخلى له أو لها عن حقي في أن يحكمني أو تحكمني، شرط أن تتخلى له أو لها أنت عن حقك وتُجيز أفعاله أو أفعالها بالطريقة عينها. هذا وإن المجموعة المجتمعة على هذا النحو في شخص واحد، تُدعى دولة، باللغة اللاتينية (سيفيتاس) هذا الاله الفاني، الذي ندين له بالسلام والدفاع، وهو أدنى رتبة من الله، الله غير الفاني^(١١). لكن هذا الشكل يختلف عن دولة البعث، التي لم تأت من تخويل أو عقد اجتماعي بين الحاكم والمحكوم، إنما تم الحكم وفق سياسة الخوف، وهذا الجانب الآخر من دولة اللفيانان.

والمعنى السابق لدولة اللفيانان وفق رؤية هوبز يقترب منه مكيه في فهمه لدولة البعث، إذ يقول: "من الممكن التفكير ان البعث قد سعى الى تحقيق عالم هوبز من المادة الخام التي قدمها له المجتمع العراقي. لقد كان مشروع البعث هو تحطيم الواقع الاجتماعي الموروث الى مجموعة جديدة من العناصر المؤلفة المتماثلة الوزن: افراد خائفون بلا جذور، مغتربون عن جماعتهم التقليدية (القرابة، القبيلة، الطائفية، والطبقة). وسيعاد بعد ذلك تجميع تلك الشظايا، داخل شبكة جديدة من الصلات المتمركزة في الدولة"^(١٢). وإذا كانت دولة البعث اعتمدت على هذا النهج إلا إنها قد تركته في التسعينيات، إذ أُعيد الاهتمام بالقبيلة، فضلاً عن سلوكياتها الطائفية بعد عام ١٩٧٩م وربما قبل هذا التاريخ، حين تحول الحكم الى حكم القرابة، بل لم يقف الأمر عند هذا الحد، إنما قد تم تغيير الطبقة الاقتصادية الى طبقة اخرى تتسجم مع تطلعات البعث في ايجاد طبقة جديدة .

ويتبين مما سبق، إن استراتيجية هوبز في فهم السلوك البشري بشكل عام تحركت وفق دوافع وليس غايات، وهذا ما عبر عنه أحد المهتمين بدراسه فلسفة هوبز السياسية وفق قوله: "يجب أن يفهم السلوك البشري كما يرى هوبز اساساً عن طريق سيكولوجيا آلية عن الانفعالات، تلك القوى الموجودة في الانسان التي إن جاز التعبير تدفعه من الخلف، إنه يجب ألا يفهم عن طريق تلك الاشياء التي يمكن تصورها بأنها تجذب الانسان من الامام، أي غايات الانسان، أو ما تكون بالنسبة لهوبز موضوعات الانفعالات"^(١٣). وهذا ما أدركه مكية في دراسته للبعثية، فقد عمل البعث على حقن نوعية من الخوف الذي افترضه هوبز مجرد افتراض، لذا احتاج البعث الى خلق يقوم على مؤسسات مخصصة للعنف... وبالتأكيد لم يحلم هوبز أبداً بإطلاق مثل هذا العنف، فقد كان اهتمامه على عكس ذلك تماماً، أن يخلص الافراد من خوف الموت الذي كان يتلبسهم في حالتهم الطبيعية الحرة، وسينفي تثبيت النظام من خلال القوة المطلقة لصاحب السيادة ذلك الخوف، بأن تنتزع الحرية الفردية للعمل باستقلالية، وينزع البعث الشيء نفسه بحقن الخوف الذي لم يكن موجوداً في الأصل^(١٤) .

ولم يكتفِ هوبز بدور الخوف بتشكيل دولة اللفيان، بل أنه عدّ الحاكم الهاً، إذ يقول: "في هذا الاله يكمن جوهر الدولة التي هي (من باب التعريف) شخص واحد، ذات الاعمال المنسوبة الى فاعل، نتيجة الاتفاقيات المتبادلة المعقودة بين كل عضو من المجموعة الكبرى، بُغية تمكين هذا الشخص من ممارسة القوة والوسائل الممنوحة من الجميع... أما الطرف المودّع لديه هذا الشخص، فيدعى بالحاكم المطلق، ويُقال إنه يتمتع بالسلطة المطلقة وكل ما يخرج عن نطاقه، هو فرد من الافراد التابعين له" (١٥) .

وإن المقاربة بين الاله والدولة قد تنبه لها مكية في فهمه لدولة البعث، ولاسيما لدور القائد الذي يقول عنه مكية: "هكذا ينتهي الاثنان - البعث في الواقع السياسي... وهوبز في نظرية تجريدية- حيث البسوا القائد قوة بموافقة الشعب، بحسب السمة المدمرة مبدئياً، بحيث أن كل رجل بذاته هو مصدر كل ما يفعله الحاكم المطلق، ولذا فإن الذي يشكو من ضرر يصيبه من حاكمه، يشكو من ذلك الذي هو مصدره، ولذلك لا ينبغي أن يتهم أي شخص آخر إلا نفسه" (١٦). و"إذا كان الشكل الذي تبنته سلطة البعث في النهاية هو الشكل اللفيانتي (نسبة الى فكر هوبز)، أو ظاهرة الزعامة، فإنه ما زال عليها محتوى مكّن من مبادئ مميزة للبعث. لقد كان لابد أن تصبح هذه المبادئ مقبولة قبولاً عريضاً لكي تستخدم من الزعيم بحصافة لتبرير كل افعاله، بما فيها الخوف الذي كان يكمن في جذور سلطته. باختصار، كانت المبادئ المثل البعثي لعقد اجتماعي هوبزي، وهي تحدد نظام الالتزامات السياسية وفي النهاية الأخلاقية التي نشأت في البناء الهوبزي للسلطة" (١٧) . ويمكن القول وفق رؤية هوبز، توجد وسيلتان لبلوغ هذه السلطة، الأولى من خلال اخضاع الآخرين لحكمه وابدانهم إن رفضوا، أما الثانية فهي الاتفاق على الخضوع لشخص واحد أيّاً كان، أو الى مجموعة اشخاص بشكل طوعي (١٨). والوسيلتان قد طُبقتا في عراق البعث، فمن رفض حكمهم قد تمت ابادته ومن خضع لهم بشكل طوعي كان أما نتيجة لسياسة الخوف أو موالٍ لفعلمهم .

ثالثاً- جمهورية الخوف والدولة الشمولية (ارندت مرتكزاً للفهم عند مكية):-

في البدء لابد من الإشارة الى وجود اختلاف بين حنه ارندت ومكية، إذ إن الأولى اشتغلت على فهم النازية والستالينية بعد نهايتهما، أما مع مكية فالأمر مختلف معه، فميزته إنه اشتغل على دراسة البعثية في ذروة ممارستها للعنف، لكن هذا لم يمنعه من الاشتغال بحماسة في التحليل. بل يمكن القول إن مكية يُعدّ من أوائل من كشف قسوة النظام البعثي وظلمه على المستوى التحليلي- وإن سبقته دراسات وصفية أخرى-، وهذا على أقل تقدير .

إن خصوصية الشمولية في العراق كانت مجرد استكمال لاستحكام الدكتاتورية الصدامية وليس العكس، فتاريخ الشموليات (الكلاسيكية) يكشف عن إنها تؤدي بالضرورة الى الدكتاتورية، أما في العراق فقد جرى العكس أي إن الدكتاتورية هي التي أدت الى الشمولية،

ومن هنا طابعها المشوه والمدمر بالنسبة للنظام السياسي^(١٩). وإذا كان السؤال عن اختلاف دولة عن دولة أخرى من حيث عملها فإن الدولة الشمولية تعمل على تفكيك بنية مؤسسات الدولة، وبالنتيجة خلخلة طرق ممارسة السلطة^(٢٠). والقول السابق يعني أن شمولية النازية قد أوجدت هتلر وكذلك الستالينية تعد من نتاج ستالين التي تشترك معها البعثية في العراق في الكثير من الأمور. ويمكن القول إن فهم ارندت للدولة الشمولية يقوم على القول بأن من مرتكزات الشمولية هي القائد والحزب والايديولوجيا، وتتطبق جميع هذه المرتكزات على العراق في عهد صدام منذ أواخر السبعينات حتى أواخر حكمه، كما سيلاحظ لاحقاً. وإذا تم مقارنة نص اسس التوتاليتارية مع نص مكية (جمهورية الخوف)، يتبين هذا التقارب الكبير، مع التأكيد إن مكية قد افاد من فهم ارندت للنظم الشمولية، وإن لم يصرح بذلك، إلا إنه اتضح للباحث من خلال المقارنة وفق مرتكزات ارندت في فهم الشمولية التي اعتمدها مكية، ولاسيما إن الدراسة تعتمد على المقاربات .

١- **القائد:-** يعدّ صدام حسين دكتاتور قزم بالمعايير الغربية (بالمقارنة مع ستالين وهتلر)، لكنه مع ذلك، هو الذي أنشأ نظاماً حديثاً مريعاً وحكم عن طريق الخوف^(٢١). وبالرغم من إن ذلك سمة الأنظمة في الشرق الاوسط ومغزاها واضح من صور الزعماء، لكن ليس كالانتشار أو التنوع كما في عراق البعث، فصدام هو رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة ورئيس مجلس قيادة الثورة وامين عام القيادة القطرية لحزب البعث ورئيس مجلس التخطيط الاعلى ورئيس لجنة الاتفاقات ورئيس المجلس الزراعي الاعلى ورئيس المجلس الاعلى لمحو الامية الاجباري ورئيس هيئات اخرى كثيرة الى جانب كل هذه المناصب، وكذلك له من الالقاب الشرفية وأشكال المخاطبة: الرئيس القائد، القائد المناضل، حامل اللواء، فارس الامة العربية، بطل التحرير الوطني، الاب القائد، الفارس المغوار، والقائد الضرورة.... الخ^(٢٢). وإن للقائد ضرورة في النظم الشمولية، وهذا ما تقول به ارندت على الرغم من تأكيدها بأن ضرورة القائد ليس حكراً على النظم الشمولية فحسب، بل قد استعير ذلك من نظم أخرى كما في قولها: "إن مبدأ القائد المزعوم ليس توتاليتاريا في ذاته بل أنه استعار من الاستبدادية ومن الدكتاتورية العسكرية بعض السمات التي ساهمت الى حد كبير في تعظيم الظاهرة التوتاليتارية الاساسية والتقليل من قدرها"^(٢٣). كما تقول في موضع آخر: "إن هذا المبدأ (القائد) لا يتيح بناء تراتبية في الدولة التوتاليتارية، دون بنائها في الحركة ذلك ان سلطة الجسم السياسي ليست راشحة بسلسلة من المستويات الوسيطة كما هي الحال فيالانظمة الاستبدادية اما العلة الحقّة في ذلك فهي إنه لا تراتبية دون سلطة ومبدأ السلطة رغم اساءات الفهم العديدة حول الشخصية المتسلطة يظل الضرورة متعارضا بصورة تقابليه مع مبدأ التسلط التوتاليتاري"^(٢٤) .

٢-الحزب :- لقد اهتم مكية بعناية في دراسة حزب البعث ولاسيما ممارساته وايدولوجيته التي قد افاد من رؤيته باحثون آخرون، لكن ما يعني الباحث هنا هو مقاربتها مع ارندت في تأكيدها على دور الحزب في النظم الشمولية، وبشكل خاص الحزب الواحد وهذا ما جعل من النظام الشمولي مختلفاً عن النظم الاستبدادية الاخرى التي ربما تحتوي على عدة احزاب على الرغم من سيادة الطغيان فيها. إن البنية الاحادية التي تتشكل منها الدولة الشمولية ليست للمراقب أمراً أكثر جلاء من غيره، فكل الذين عالجوا المسألة بجدية وعمق اجمعوا على وجود مصدرين للسلطة يتعايشان فيها وهما الحزب والدولة^(٢٥)، وتقول ارندت في هذا السياق: "إن هدف الانظمة ذات الحزب الأوحد لا يقتصر على الاستيلاء على السلطة فحسب، بل يتعداه الى استكمال التمثل التام ما بين الدولة والحزب، وذلك بتعيين اعضاء من الحزب في كل مراكز الدولة، بحيث يصير الحزب بعد تولي السلطة نوعاً من هيئة تهتم بأطلاق الدعاية لصالح الحكم، وإن هذا النسق من الحكم لا يكون كلياً إلا بالمعنى السلبي، إذ لا يسع الحزب الحاكم أن يتسامح ازاء وجود أي حزب آخر أية معارضة وأية حركة للرأي العام"^(٢٦).

٣-الايدولوجيا:- هناك رأي يستدعي الاهتمام ذكرته ارندت يتمثل بقولها: "إن الايدولوجيات جميعها ما برحت تتضمن عناصر توتاليتارية، غير إن الحركات التوتاليتارية دفعت بها الى التنامي بصورة كاملة"^(٢٧). ولكن مع الايدولوجيا البعثية لا يمكن تخصيص ذلك إلا بصعوبة لطبقة اجتماعية موجودة بالفعل وذلك في غياب مجتمع عربي واحد، وإن هذه الايدولوجيا هي فبركه ضيقة الافق للعالم من الاساطير الاجتماعية، وتلك الاساطير منتقاة من التاريخ العربي والاسلامي ومنظمة فكريا بمساعدة عدد من المفاهيم المستعارة من اليسار فالوحدة العربية والحرية والاشتراكية العربية والنضال ضد الامبريالية والصهيونية كلها بعض الكلمات الاساسية الجاذبة في تلك الاساطير^(٢٨). وإن الشمولية اكتشفت بفضل ايدولوجيتها الفريدة وبفضل دورها المعطى لها في جهاز الضغط وسيلة للسيطرة على الكائنات البشرية وازهابها من الداخل وبهذا المعنى فأن الوسيلة الآتفة تلغي المسافة بين الحاكمين والمحكومين وتحقق منظومة لا تؤدي فيها القدرة وارادة القدرة كما نعيها أي دور أو تؤدي فيها دوراً ثانوياً ليس إلا، وعملت على ترسيخ فكرة إن القائد الشمولي ما هو إلا موظف لدى الجماهير ويقودها وهو ليس فردا متعطشا للسلطة وبالتالي لا يفرض على رعيته ارادة استبدادية واعتباطية، وبات رهن ارادة الجماهير التي تجسده مثلما ماهي رهن له^(٢٩).

رابعاً-بعيداً عن قانون قريباً من كافكا (جمهورية الخوف بين معذبو الارض ومستوطنة العقاب):- لعل من ابرز الاسماء التي اقترن اسمها بالاهتمام بموضوعة العنف في القرن العشرين هو فرانز فانون، ولاسيما في كتابه معذبو الارض، إلا إن العنف الذي تناوله فانون

لا ينطبق على العراق وهذا ما ادركه مكية، لأن قانون في دراسته دعا المضطهدين من الدول المستعمرة لاستعمال العنف من اجل استرداد الحقوق، وهنا ممارسة العنف من الشعب تجاه السلطة التي تمارس العنف. أما ممارسة العنف في العراق فتتعلق بما تمارسه السلطة من عنف تجاه مواطنيها وهذا الامر يقترب من عالم كافكا الذي فهمه مكية من خلال قراءته لجملة اعماله الادبية، ويبدو من وجهة نظر الباحث إن اقرب الاعمال المنسجمة مع الدولة البعثية هو نص مستوطنة العذاب لكافكا. وعلى الرغم مما ذكر عن عدم انسجام نص قانون مع البيئة العراقية، إلا إنها كانت ملهمة للعديد من المضطهدين في عدة دول من العالم على حد تعبير أحد الباحثين، إذ يقول: "لقد ألهمت كتابات قانون ومواقفه الثورية كثيراً من حركات التحرر في أرجاء العالم، إذ كان من المؤمنين الاشداء بأن مقاومة المستعمر تتم باستعمال العنف، والعنف من جهة المقموع فقط، فما أخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة"^(٣٠)، إذ يعتقد قانون إنه لا بد للمظلومين من استعمال العنف ليحرروا انفسهم، وليقيموا مجتمعاً انسانياً قائماً على كرامة الانسان وقيمه كائنسان، بغض النظر عن شكله ولونه وجنسه، فقد آمن قانون بأن استعمال العنف هو الطريق الوحيد لتحرير الانسان من قيد الاستعمار^(٣١). و"إن عملية قانون لازالة الاستعمار ليست قومية من حيث الشكل فقط بل هي عنيفة من حيث الموضوع أيضاً، فالاستعمار، في نظره، مرادف للعنف السياسي والعسكري والثقافي والنفساني ومن ثم فلا يمكن أن يقضي عليه إلا عنف مماثل ومعاكس في جميع المجالات"^(٣٢).

أما عن موقف مكية من قانون، فذلك يتضح اكثر من خلال قوله الذي يصف فيه علاقة نص جمهورية الخوف بنص قانون معذبو الارض: "كتاب جمهورية الخوف في محتوى الثقافة السياسية العربي يُعتبر نصاً مضاداً لكتاب قانون، فأرضيته مختلفة تماماً، لكنه مثل كتاب قانون، يقف وقفة في تلك الفجوة المهمة التي توجد دائماً بين الماضي والمستقبل، الفجوة التي يمكن فيها للاختيار الانساني والمسؤولية والالتزام والاحساس بالغضب أو الخجل، أن تقرر مسار الاحداث"^(٣٣). وهناك مقاربة مهمة لسارتر (Jean paul Sartre)

(١٩٠٥م-١٩٨٠م) اشارت الى دور العنف في تشكيل الخوف، وهذا ما اشار إليه في مقدمته لكتاب معذبو الارض، إذ يقول: "ففي هذه اللحظة الجديدة يصير العدوان الاستعماري في نفوس المستعمرين الى زعر. ولست اعني بالذعر ما يشعرون به من خوف ازاء اساليبنا في القمع، هذه الاساليب التي لا ينضب معينها، لست أعني هذا فحسب، وإنما اعني أيضاً ذلك الخوف الذي يثيره في نفوسهم حنقهم هم. إنهم محاصرون بين اسلحتنا المصوبة إليهم، وبين تلك الاندفاعات الرهيبة وتلك الرغبة في القتل التي تصعد من اعماق قلوبهم، والتي لا يتعرفون عليها دائماً، لأنها ليست في أول الامر عنفهم هم، وإنما هي عنفنا نحن وقد انقلب واشتد واصبح يمزقهم. والحركة الأولى التي تقوم في نفوسهم هي أن يدفنوا دفناً عميقاً ذلك

الغضب المكتوم الذي تستنكره أخلاقهم وأخلاقنا معاً^(٣٤). ووكان سارتر متحمساً لفكرة كتاب قانون، فوفق قول مكية: "إعادة خلق الانسان لنفسه من خلال العنف" وإن الرقة لا يمكن أن تمحو آثار العنف، فالعنف وحده من يمكنه تدمير آثاره، على الرغم أن قانون لم يكن بهذا الغباء إلا أن هذا ماتم فهمه في العالم العربي^(٣٥). ويمكن القول إن العنف لم يكن من البعثية فحسب، بل حتى الشعب -بعض منه- قد شارك به، وهذا الفهم يجعل نص قانون بعيداً عن طبيعة ردود فعل الشعب العراقي تجاه العنف الذي مورس ضده، فبقي عنف كامن ثم تحول الى عنف سافر . أما عن كافكا فالأمر مختلف، إذ تنطبق بعض كتاباته ولاسيما في مستوطنة العقاب والشأن العراقي، إذ هناك العنف الذي ابتكره القائد، فالآلة التي اخترعها القائد السابق ورغم المساعدة التي قدمت له إلا إن الامر يعزى له وحده، الذي هو مصمم تنظيم مستوطنة العقاب، وإن جاء أحد بعده حتى وإن كان بالغ الذكاء سيجد من المستحيل تغيير أي شيء على الإطلاق على الأقل لسنوات^(٣٦). ووفق فهم مكية يظل كافكا هو الذي ينطبق على العراق المعاصر، لأنه يفهم هذا الوضع افضل من أي كاتب آخر في القرن العشرين^(٣٧). "ولعل أهم السمات المميزة لهذه القصة، هي قدرتها على الامساك بالقارئ دون هوادة... ففي القصة حقيقة، هي أنها تكشف عدم معقولية المعاناة في عالم خلا من القيم، وتغلبت عليه الوحشية. والقصة تدين بالفضل في أصلها الى عبارة شوبنهاور، الذي يشبه فيها العالم بمستعمرة للعقاب"^(٣٨). ويمكن مقارنة حال المجتمع العراقي وماوصل إليه مع نص كافكا، ففي مستوطنة العقاب تأكيد على قيم العذاب النفسي وتفضيل لقبول الانقراض، أو الفناء على البقاء في عالم عطوف انساني المشاعر^(٣٩) و"في اعمال كافكا نجد تمثيلاً مجازياً عن مجتمع يعيش من دون أية غاية محددة، ولكنه بشكل أكبر مقدر له أن يبلغ نهاية ما بالمعنى المادي"^(٤٠) "ويمكن اعتبار كافكا الكاشف عن مخاطر العلاقات الاجتماعية والنفسية عندما جرى اختزالها الى مجرد وسائل لا أكثر"^(٤١).

خامساً- العنف اداة لسياسة الخوف:-

يختلف عنف البعث عما سبقه من اشكال العنف الأخرى، سواءً أكان مع قانون الذي شرع العنف لمحاربة الاستعمار أم مع آخرين، إلا أنه يمكن أن يقترب من مقدمة سارتر لكتاب قانون الذي أكد أهمية العنف من اجل اعادة خلق الانسان. وهنا البعث في استعماله للعنف من اجل صناعة انسان كما يريده البعثيون وليس من اجل محاربتهم، وهذا ما نجحوا فيه من خلال سياسة الخوف . ان العنف قد اسهم في تشكيل الخوف عند العراقيين في ظل سلطة البعث، وليس مع دراسة البعث فحسب، إنما مع كل النظم الشمولية. ففي العقود الأخيرة من القرن العشرين اتجهت ابحاث المهتمين في الدراسات الانسانية نحو فهم العنف الذي جرى في اغلب دول العالم. وقد اشارت ارندت في كتابها في العنف الى انه نادراً ما

كان موضع تحليل لدراسة منفردة أو خاصة، بينما يفترض الاهتمام بدراسته^(٤٢). ومن خلال دراسة ارندت، فإن سارتر ومن خلال تقديمه لكتاب فانون (معذبو الارض) قد ذهب في تمجيده للعنف أبعد مما ذهب اليه سوريل Georges Sorel (١٨٤٧م-١٩٢٢م) في كتابه تأملات حول العنف، بل وأبعد مما ذهب اليه فانون نفسه مبيناً العنف الذي لا يمكن قهره.. إنما هو جوهر الانسان، إذ يعيد خلق نفسه بنفسه، وإن معذبي الارض لا يمكنهم أن يصبحوا بشراً إلا عبر الجنون القاتل^(٤٣)، إذ كان سوريل ينظر الى الصراع الطبقي عبر رؤية عسكرية، لكن الأمر انتهى به الى اقتراح الاضراب العام، كأقصى درجة من درجات العنف^(٤٤). وبما إن للعنف اشكال فإن أحد اشكاله يرتبط بالحرب، فلم تشن حرباً على الاطلاق إلا بالادعاء أنها من أجل السلام والأخير لا يحتاج الى أي تبرير^(٤٥). لكن من خصوصية العنف في العراق أنه محلي ولم يفرض من قوة خارجية، ويرجع ذلك الى البداوة والثقافة التي تغذيه^(٤٦). وهذا القول ينطبق على حقبة البعث أما مابعد البعث فلم يعد العنف محلياً، وهذا الأمر يلاحظه الجميع، إذ ساهمت دول عديدة بتصدير العنف الى العراق من خلال افراد وجماعات بأشكال متجددة. وللوقوف على خصائص عنف البعث وعلاقته بسياسة الخوف يمكن ذكر النقاط الآتية:-

١- "لقد تم تنظيم العنف وليس مجرد التهديد به، من خلال المؤسسات، فهو ينتج ويكتف على الدوام ذلك المناخ المنتشر في كل مكان من الشك والخوف والمشاركة في الذنب، وهو بذلك صفة متعلقة في كيان الحكم البعثي. عن العنف يولد الخوف، الذي يخلق المشاركة في الذنب"^(٤٧).

٢- إن عنف البعث يتصف بأن مئات الآلاف من الناس العاديين متورطون فيه، فحتى الاجهزة الامنية هم اناس عاديون أو معظمهم، وذلك لأن عددهم أكبر من أن يسمح بأن يكون غير ذلك وفق رأي مكية^(٤٨). "فقد خضع التوسع في وسائل العنف-من جيش وشرطة واجهزة امنية وشبكات من المخبزين والمليشيا الحزبية وبيروقراطيات الدولة والحزب- الى انقلاب نموذجي: فتحوّلت الوسائل الى غايات، واصبح استئصال المعارضين وممارسة القوة الغاشمة، غايات مريعة في حد ذاتها، متخطية بغباء الحدود التي كانت تقف عندها فيما مضى"^(٤٩).

٣- إن الشكل الأكثر تطرفاً للعنف هو الذي يعبر عنه شعار الواحد ضد الجميع، وهذا الأخير لا يكون ممكناً من دون اللجوء الى أدوات القمع^(٥٠).

٤- "القصد من التعذيب هو محو الفوارق، إنه اشبه باجراء عملية جراحية للحقيقة البيولوجية للفردية غير المنقوصة، لاثبات عدم صحتها في الحقيقة"^(٥١). وللوقوف أكثر عند العلاقة بين العنف وسياسة الخوف من خلال دورهما في اعادة تشكيل الانسان، ويمكن الاستشهاد

بالنص الاتي: "ليس التعذيب فقط عن تلقين الخوف، بمثل ما كان الحكم بالسجن ليس مجرد انتقام في ظل القانون البرجوازي. إن الفكرة التي لابد من وجودها، هي إن السلطة مبدئياً وكضرورة ايديولوجية ينبغي أن تكون على مدى كبير من الانتشار،..... الى (فعل) و(تشكيل) الناس ووضعهم في قوالب. فالتعذيب نتيجة مترتبة على تلك الانماط من الكلمات في السياسة، ونظيرها البرجوازي هو اعادة التاهيل لمعالجة السلوك العدواني....وعندما يتحدث البعث عن الانسان الجديد والمجتمع الجديد اللذين يرغب في خلقهما في العراق....أنها الموضوعات المجسدة للسياسة الموجودة في كل مجال من مجالات الحياة: في مناهج التعليم، في وسائل الاعلام، في البرامج الاجتماعية، في تدريب الرجال وانضباطهم في الجيش والمليشيا، وفي الحزب"^(٥٢).

ومن الواجب القول إنه: "يجب التمييز بين العنف المادي والعنف المعنوي، فالأول هو العنف المباشر الذي يتناول الاجساد واشكاله اكثر من أن تحصى. فإذا لم تمارس الدولة هذا النوع من العنف فهذا لا يعني إنها لا تسبب العنف المعنوي الناشئ عن حالة عنف أو وضع....يحدد ريمون ارون (Raymond Aron) العنف بهذا المعنى، إذ يقول: ندعو عنفا كل مبادرة تتدخل بصورة خطيرة في حرية الآخر، وتحاول أن تحرمه حرية التفكير والرأي والتقرير، وتنتهي (بشكل خاص) بتحويل الآخر الى وسيلة أو اداة من مشروع يمتصه ويكتنفه، دون أن يعامل كعضو حر أو كفؤ"^(٥٣). وهذه التقسيات لانواع العنف ضرورية في فهم العنف الذي مارسه البعث، "العنف على سبيل المثال، يعتقد المواطن العراقي المتوسط أنه عند مستوى (عادي). لماذا؟ لأنه مجرد أن يفكر المواطن في أن الامر ليس كذلك، يسقط دفاعاته في وجه العنف، إن الاهتمام المتسلط لكل امرئ بأن يضع قناعاً في مكان العمل، وعند تعامله مع موظفيه، وفي العلاقات مع الجيران، وحتى امام العائلة، منتشر بشكل كبير في العراق اليوم، لدرجة انه من المحتمل أن يصبح تمييز الفعل الاصلي للخداع مشوشاً. إن القناع يضعه المرء باكتمال، إنه يلتصق به لدرجة أنه لم يعد من الممكن أن يخلعه مثل القوقعة التي علقت عليها صدفتها"^(٥٤).

سادساً- الجماهير وسياسة الخوف:-

بالتأكيد إن التجمعات ليست وليدة اليوم، إنما تحشيد هذه التجمعات حول فكرة ما سواءً أكانوا مؤمنين بها أم غير ذلك هي وليدة القرنين الماضيين -أي التاسع عشر والعشرين-، فقد كان عدد من ابرز الفلاسفة ورجال الدولة الاوربيين قد تنبأوا، منذ أوائل القرن التاسع عشر، بولادة (رجل الجمهور) وحلول عصر الجماهير^(٥٥). ويشير احد المصادر الى إن مفهوم الجماهير نشأ مع مفهوم المجتمع الجماهيري ومع التحليل المناهض للثورة الفرنسية^(٥٦). ومن الممكن القول إن رجل الجمهور لا يعني ذلك الفرد المندمج في الجماعة والذي

يمتلك قاعدة من العلاقات الاجتماعية بل على وصف ارندت: "إن الميزة الرئيسية في رجل الجمهور ليست الفضاظة أو التخلف العقلي، إنما تكمن في الانعزال والنقص في العلاقات الاجتماعية السوية"^(٥٧). وبناءً على ما تقدم اعتقد مكينة إن سياسة الخوف في العراق عملت من خلال اشراك الجماهير في عنف البعث من خلال مؤسسات الدولة سواء أكانت شرطة وجيش أم ميليشيا الحزب، إذ لا يمكن فهم الدور غير العادي للخوف في العراق إلا من خلال فهم تلك النقطة^(٥٨). ولم يكتف البعث في توظيف سياسة الخوف، إنما جعل من شرعيته مرتبطة بالجماهير أو إنه يوحي الى ذلك. إن شرعية البعث تتبع من الجماهير ومن الثورة التي تمت بأسم الجماهير. إن الدولة الجديدة ورسالتها في الفكر البعثي كانتا فعلياً مرادفين لـ الأمة العربية أو الجماهير، وهو ما اشتق كتسمية سياسية للجماعة المنصهرة في بوتقة واحدة. واصبح من الصعب بالنسبة للفرد أن يخطئ ضد هذه الجماعة من خلال افعال محددة.... وبالنسبة للعقلية البعثية فإن انتهاك الجماهير في كليتها يشكل نوعاً ابشع من الخيانة من الطراز القديم لان ذلك الانتهاك اعتبر هجوماً على مصدر سلطتهم^(٥٩).

ومن الممكن القول إن اعتماد البعث على توظيف الجماهير لم يكن سمة له وحده بل يرتبط ذلك مع اغلب الحركات الشمولية التي تسعى الى اشراك الجماهير في تنفيذ مشاريعها. "غالباً ما تسعى الحركات الشمولية الى تنظيم الجماهير وتفلح في ذلك -بخلاف الاحزاب القديمة القائمة على المصالح والتي تهتم بالطبقات، والناشئة في غالبيتها في امم أوربية، وبخلاف ما تذهب إليه الاحزاب في البلدان الانكلو -ساكسونية من حيث اهتمامها بالمواطنين ذوي المصالح، ويتأثير الارء العامة في مسار الشؤون المحلية"^(٦٠).

وربما يرجع سبب نشوء هذه الجماهير نتيجة الاستئصال من الجذور المرتبط بالمدن الحديثة وتفكك الأسرة، "إن الانسان الجماهيري، المغترب، والمنعزل، والمقتلع من الجذور عاجز عن التعبير عن مصالحه، قدر عجزه عن تنظيمها، فهو لا يستطيع أن يكون عقلاً في افعاله، لأنه غير قادر على أن يحدد أي مصلحة اصيلة ويمارسها. وهذا ما يفسر لنا الخراب الغريب الذي لحق بالسياسة في القرن العشرين"^(٦١). "إن الجماهير غير ميالة كثيراً للتأمل، وغير مؤهلة للمحاكمة العقلية. ولكنها مؤهلة جداً للانخراط في الممارسة والعمل"^(٦٢).

وهناك تطور قد حصل في سياسة البعث وهو انتقالها من التعبئة الجماهيرية بواسطة المشاهد المشحونة بالقسوة الى سلطة مبنية على خوف متأصل في نفوس الجماهير^(٦٤). وهنا مسألة مهمة يوردها مكينة لابد من الوقوف عندها إن الضراوة في تصعيد البعث للحرب ضد (الكرد) عام ١٩٦٨م، لم يكن يحوز تأييد السكان سابقاً من ثم حاز تأييدهم، فلم يعد الاكرد شركاء^(٦٥). وكذلك ما يلفت الانتباه التحول العكسي الذي حصل لدى الجماهير، وفي ذلك يقول مكينة: "كانت الجماهير في تموز ١٩٧٩م، داخل وخارج الحزب، متفرجة عابرة،

بينما كانت في كانون الثاني عام ١٩٦٩م مشاركة نشطة^(٦٦). وكل هذا يتفق مع القول الآتي: "الجمهور سريع التأثر، سريع التصديق، يعوزه الحس النقدي، ولا وجود في نظره للمستبعد الحدوث"^(٦٧)، وإن النظم الدكتاتورية حينما تشتغل على الجماهير وترفض أي صفة للفردانية، وذلك لأن الفرد المنخرط في الجمهور يكون لا واعياً بأعماله، وحالته أشبه بالمنوم مغناطيسياً، أما الأفراد الذين لا ينخرطون فنسبتهم ضئيلة، والفرد المنخرط في الجمهور لا يصبح هو نفسه، بل عبارة عن إنسان آلي^(٦٨). وهذا ما حاول البعثيون توظيفه وليس هم وحدهم، إنما كل النظم الشمولية في العالم.

سابعاً- ما بعد سياسة الخوف:-

إن ما جرى على مدار خمسة وثلاثين عاماً من ممارسة سياسة الخوف ربما ترك أثراً لا يمحي بسهولة من تكوين الفرد والمجتمع العراقي، ورغم إن مكية لم يدرس هذا الموضوع لأنه ليس مجال اهتمامه حينها. ولكن هذا لا يمنع من أن يشتغل الباحث المعاصر على رؤية ما بعد سياسة الخوف من خلال كتاب مكية جمهورية الخوف (تحديداً)-رغم إنه قد ناقش شيئاً من ذلك في كتابه الفتنة-. يشير مكية الى إن أي مستقبل ما بعد بعثي للعراق سيكون مشابهاً، على وجه التقريب، للمشي على حبل مشدود موازن بين المظالم المشروعة لكل أولئك الذين عانوا وادركوا إن العراق سيتمزق، اذا كان كل من أذنب بالفعل سيتحمل المسؤولية، فعراق ما بعد صدام سيكون البلد الذي تصبح فيه العدالة المطلب الاول الذي ينشده كل فرد، ولكنها ستكون أيضاً من اصعب الاشياء على أي كان توفيرها^(٦٩). وذلك نتيجة للظلم الذي أسسه البعث وبالتأكيد هذا سينتج مظلومين وظالمين فكيف سيكون التعامل معهم على وفق المصالحة أم على وفق الاجتثاث؟ وإن تم التصالح معهم فكيف سيكون حال من ظلم؟ وإن تم اجتثاثهم، فهل سيستسلم الظالم لهذا الحكم من دون رد فعل؟ هذا الأمر في مسألة واحدة على الأقل فكيف يكون في مسائل أخرى، نعم كما قال مكية فإن العدالة ستكون المطلب الاساس. ولم يقف الحد في مطلب العدالة عند ما ذكر بل تجددت أمور أخرى ما بعد سياسة الخوف تحتاج المزيد من الدراسة من مثل إن بناء الدولة مع البعث قائم على سياسة الخوف وليس وفق سياسة المواطنة وهذا ما أنتج الفساد والارهاب وكل قيم الخراب الأخرى بعد سقوط البعثية. وقريباً من الفلسفة، فقد بيّن دولوز (Gilles Deleuze) (١٩٢٥-١٩٩٥م) وفيليكس كاتاري (Felix Guattari) (١٩٣٠-١٩٩٢م) في كتابهما ألف هضبة (mille plateaux) إن الدولة الشمولية تحقق شموليتها من خلال عسكرة المجتمع المدني والتعبئة الكلية للسكان في مجهود الحرب، وداخل هذه الدينامية تسعى الدولة لتصبح مجرد وسيلة لتسريع وتيرة عملية الهدم التي ستندثر داخلها بدورها^(٧٠). وإن عسكرة المجتمع مع البعث انتهت امكانية الفرد للتخلي عنها سواءً أكان إنسان عادي أم مسؤول، بل أصبحت

هي الأساس أي العسكرية، أما المدنية فهي الاستثناء. وقد اشار مكية الى "إن (تدولة) المجتمع العراقي فيما بعد عام ١٩٦٨م، خلافا عن مثيلتها في دول العالم الثالث الأخرى، قد حدثت على أرضية من اشراك الجماهير في عنف البعث عن طريق اشراكها في مؤسسات الشرطة والمليشيا والجيش التابعة للحزب، ولا يمكن أن نفهم الدور غير العادي للخوف العراق إلا من خلال فهم تلك النقطة. والتدولة يقصد بها أن العديد من العراقيين قد عمل في مؤسسات الدولة الحكومية مابعد ١٩٦٨م^(٧١). "إن ضحايا القسوة والظلم ليسوا افضل من معذبهم، بل إن وضعهم في العادة ليس أكثر من مجرد انتظار لتبادل الاوار معهم"^(٧٢). وهنا يبدو إن سياسة تحشيد الجماهير والمظلومية كذلك قد سيطرت على شكل بناء الدولة ما بعد البعث . ويمكن القول تماهيا مع قول مكية: "عندما يصبح الخوف، والعنف، والامثال، هو الشيء الطبيعي، يحتاج المرء أكثر من أي وقت، لأن يحارب ذلك ولا تتبع هذه الحاجة من رغبة ملحة للاطاحة بالطغيان الذي يحيط به، بل إن المسألة ببساطة هي الحفاظ على درجة من الاتزان النفسي لكي يستمر في روتين حياته اليومية"^(٧٣). "والنتيجة هي تجمع سكاني غير قادر على الدفاع عن نفسه، غير قادر على التفكير او تجميع الخبرة في التعامل مع نفسه، وذلك فهو عرضة في أي وقت لأن يصدق اكثر الاكاذيب خيالاً"^(٧٤) .

ولكن ما الذي قابل رجل الجمهور المندمج بافكار البعث سواء أكان مؤمناً بها أم خائفاً من سلطة البعث، وبالمقابل من هذا الشكل هناك الرجل المغفل الذي تصفه ارندت بالقول: "هو من اعتزل وسط حياته الخاصة، وجعل يكرس نفسه لعائلته ولتقدمه المهني"^(٧٥). ورغم إن إنموذج الرجل المغفل قد انتج مع سياسة البعث، إلا إنه قد ساد بقوة ما بعدها أي ما بعد ٢٠٠٣م ومن الواجب الاشارة الى ما ذكره مكية من وصف حول ما كان عليه الانسان العراقي في ظل سياسة البعث. إن استقلالية الفرد وانعزاله عن البناء الهرمي المجتمعي المعتاد وعن الانتماءات التقليدية المعروفة، قد حول أهالي المجتمعات الجماهيرية الى تكتلات من افراد تفتقر الى التماسك، وجعلتهم اكثر عرضة للتصرف كالعوام"^(٧٦). بل ما هو أكثر من ذلك، إذ إن الاستبداد المطلق قد دفع العراقيين الى التخلي بالجملة عن كل الأمور العامة، فلم يبق امامهم سوى الوقوع في الدوائر الخائفة لمفردات الهوية الاصغر فالأصغر: كالعشيرة، والطائفة الدينية، والولاء للعائلة، واخيرا الحرص على المصلحة الشخصية للفرد"^(٧٧)، وليس هذا فحسب بل إن العمود الفقري للادارة السياسية هو أن يهين كل مستوى من مستويات السلطة المستوى الذي يليه مباشرة"^(٧٨). ولابد هنا من الاشارة الى ملاحظة مهمة وهي إن الناس في المجتمعات الاستبدادية غالبا ما يلتزمون بالقوانين ويطيعونها مقارنة مع من يعيش في نظم ديمقراطية، لكن لا يعني هذا التزام، بقدر ما إنه يعكس الخوف من العقاب القاسي الذي يتعرضون له في حال عدم التزامهم، وفي حال تغير الحكم تجد هناك

ارتفاعاً في معدلات الجريمة وغياب كامل للخوف من المؤسسات الامنية^(٧٩) ، وهذا ما حصل بعد ٢٠٠٣م، حينما انتهت البعثية كمسمى لكن بقيت آثارها .

الخاتمة :-

لم تكن دراسة كنعان مكية من اجل الوقوف عند وصف ما جرى فحسب، بل هي محاولة للوصول الى المغزى الذي سعى من خلاله نظام البعث حين اعتمد على سياسة الخوف من اجل اعادة تشكيل الانسان العراقي وفق ما يريده البعث. ويمكن القول هناك ضرورة لتقديم دراسات عن العراق ما قبل ٢٠٠٣م، ولاسيما إن لتلك المرحلة حضور وتأثير راهن على العراق بكل مؤسساته . ويمكن القول إن قراءات كنعان مكية للنصوص الفلسفية كانت واضحة، ولاسيما لنص اللفيثان، الذي عمل من خلاله على توظيف رؤية هوبز للخوف السياسي وليس للعقد الاجتماعي في فهم الحالة العراقية، كذلك كان هناك حضور لافت لـ حنه ارندت لمن قرأ نص ارندت اسس التوتاليتارية وقرأ نص جمهورية الخوف لمكية، فإن القارئ سيلحظ مدى حضور نص ارندت لدى مكية، ولاسيما في مرتكزاتها لفهم النظم الشمولية التي هي القائد والحزب والايديولوجيا وهذا ماثبين في البحث، فضلاً عن وجود عامل آخر قد ساهم في ترسيخ البعثية وهو الدولة الريعية وإن لم تشر اليه ارندت وكذلك لم يشر له مكية. وبدا حضور الذائقة الادبية لدى مكية من خلال مقارنته لرؤية كافكا أو بالاحرى عالم كافكا مع الشأن العراقي وادراكه لابتعاد رؤية فانون عن فهم العراق وله الحق في ذلك -أي كنعان مكية-.

كانت هذه الدراسة محاولة لتشكيل فهم مكثف وفق مرتكزات فلسفية لنص جمهورية الخوف لـ كنعان مكية وبشكل خاص لممارسة البعث لسياسة الخوف، لأن الكتاب ربما يحتوي موضوعات أخرى، وهذا التشكيل دفع الباحث الى قراءة النص ضمن سياق نصوص أخرى درست الانظمة السياسية الشمولية، فضلاً عن النصوص التي ناقشت العنف ولو بقدر ما يتعلق بالنص المدروس بوصفه اداة لسياسة الخوف، ولم تكن هذه الدراسة ضمن اطار السياق الداخلي للنص وعلاقته بالنصوص الاخرى فحسب، انما اشتغلت ايضاً على السياق الخارجي والمتمثل هنا بالانسان العراقي الذي تشكل من خلال سياسة الخوف، سواء أكان انسان الجماهير أم الانسان المغفل كما وصفته ارندت، إذ كيف يتم الموازنة بين التخلي عن الجماهير والاهتمام بالشأن العام، ولاسيما إن أغلب اهتمامات الشأن السياسي تأتي عبر الجماهير، وهنا لابد التسليم بما ينتجه العقل الجمعي، أما الرجل المغفل الذي تصور إن بإمكانه أن ينأى عما يجري من خلال اشتغاله بما يعنيه متناسياً أن هويته وحياته مرتبطه بما يحيطه، فما السؤال الذي سيحقق اجابة تبتعد عن إنموزجي الاجابة السابقتين(رجل الجماهير والرجل المغفل)؟ هذه الحيرة ترتبط بالانسان العراقي ما بعد سياسة الخوف، فهل

يكون تصنيفه ضمن انسان الجماهير أو ضمن الانسان المغفل أو يفترض البحث عن صنف ثالث؟ ومن الواجب القول إن البحث قد ارتبط في نهايته بمسار السؤال الآتي: هل بقى شيء من رأس المال الاجتماعي إن صح التعبير؟ فالعراق في عهد البعثية قد عمل على نهاية كل شيء يرتبط بما هو اجتماعي وثقافي واقتصادي، فكل شيء كان يسير وفق سياسة الخوف. ولعل من اعظم التحديات التي واجهها الفرد العراقي هو صموده ومحافظته على انسانيته في ظل ما جرى من سياسة خوف استعملت فيها كل وسائل العنف وادوات التهريب من أجل تحقيق الغاية التي سعى البعثيون الى تحقيقها .

الهوامش:

- ١-صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ج الاول، دار الكتاب اللبناني، ط أولى، ١٩٧١، ص٥٤٥ .
- ٢-ينظر: ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق، دراسة وتحقيق عماد الهاللي، مطبعة سليمان زاده، ايران، ط أولى، ١٤٢٦هـ، ص ٢٩٩ .
- ٣-هوبز، توماس، اللفيانان (الاصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة)، ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب، الفارابي- كلمة، بيروت-ابو ظبي، ط أولى، ٢٠١١، ص٦٥ .
- ٤- ينظر:

Robin, Corey, Fear (The History of a Political Idea), Oxford University Press, 2004, p.16.

٥-ينظر:

- Griffith, Robert, The Politics of Fear : Joseph R. McCarthy and the Senate, University of Massachusetts Press, Second Edition, 1987,p.x.
- ٦-مكية، كنعان، جمهورية الخوف، منشورات الجمل، بيروت-بغداد، ٢٠٠٩، ص ٧ .
 - ٧- المصدر نفسه، ص ٣٥ .
 - ٨- المصدر نفسه، ص ٧ .
 - ٩-سانتيلير، بارتلمي، مقدمته لكتاب ارسطو (السياسة)، ترجمة احمد لطفي السيد، منشورات الجمل، بغداد-بيروت، ط أولى، ٢٠٠٩، ص ٩ .
 - ١٠- هوبز، توماس، اللفيانان، ص ٢٠٥ .
 - ١١-المصدر نفسه، ص ١٨٠ .
 - ١٢-مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ١٦٦ .
 - ١٣-بيرنز، لورانس، توماس هوبز، ضمن كتاب تاريخ الفلسفة السياسية، تحرير ليو شتراوس وجوزيف كروبيسي، ترجمة محمود سيد احمد، مراجعة امام عبد الفتاح امام، المجلس الاعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص٥٧٥-٥٧٦ .
 - ١٤- ينظر: مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ٢٠٦ .
 - ١٥- هوبز، توماس، اللفيانان، ص ١٨٠ .
 - ١٦-مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ٢٠٦ .
 - ١٧-المصدر نفسه، ص ٢٠٩ .
 - ١٨- ينظر: هوبز، توماس، اللفيانان، ص ١٨١ .

- ١٩-ينظر: الجنابي، ميثم، التوتاليتارية العراقية (تشريح الظاهرة الصدامية)، حوار وتقديم يوسف محسن، دار ميزوبوتاميا، بغداد، ط أولى، ٢٠١٠، ص ١٣٥ .
- ٢٠-ينظر: بلان، غيوم سيبرتات، الفلسفة السياسية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة عز الدين الخطابي، مراجعة جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، ط أولى، ٢٠١١، ص ٢٦٧.
- ٢١-ينظر: مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ١١ .
- ٢٢-ينظر: المصدر نفسه، ص ١٨٥.
- ٢٣-ارندت، حنه، اسس التوتاليتارية، ترجمة انطوان ابو زيد، دار الساقى، بيروت، ط أولى، ١٩٩٣، ص ١٠٩ .
- ٢٤-المصدر نفسه، ص ١٦٠ .
- ٢٥-ينظر: المصدر نفسه، ص ١٤٨ .
- ٢٦-المصدر نفسه، ص ١٧٩ .
- ٢٧-ارندت، حنه، اسس التوتاليتارية، ص ٢٦٢ .
- ٢٨-ينظر: مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ١٤٠ .
- ٢٩-ينظر: ارندت، اسس التوتاليتارية، ص ٥٧ .
- ٣٠-ينظر: الحيدري، ابراهيم، سوسيولوجيا العنف والارهاب، دار الساقى، بيروت، ط ١، ٢٠١٥، ص ٨٨.
- ٣١- ينظر: ظاهر، احمد جمال، دراسات في الفلسفة السياسية، دار ومكتبة الكندي للنشر والتوزيع، الاردن، ط أولى، ١٩٨٨، ص ٢٨٤.
- ٣٢-كوث، دافيد، فرانز فانون، ترجمة عدنان كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط أولى، ١٩٧١، ص ١٣٨ .
- ٣٣-مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ٤٠ .
- ٣٤-سارتر، جان بول، مقدمته لكتاب معذبو الارض، فرانز فانون، ترجمة سامي الدروبي وجمال الاتاسي، مدارات للابحاث والنشر، مصر، ط ثانية، ٢٠١٥، ص ٢٨.
- ٣٥-ينظر: مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ٣٨-٣٩ .
- ٣٦-ينظر: كافكا، فرانز، مستوطنة العقاب، ترجمة كامل يوسف حسين، دار شرقيات لنشر والتوزيع، القاهرة، ط أولى، ١٩٩٦، ص ٢١-٢٢.
- ٣٧- ينظر: مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ٣٦
- ٣٨-جرى، رونالد، فرانز كافكا، ترجمة نسيم مجلى، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١١٩-١٢٠.
- ٣٩- ينظر: المصدر نفسه، ص ١٢٨.
- ٤٠-ليشته، جون، خمسون مفكراً أساسياً معاصراً، ترجمة فانتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط أولى، ٢٠٠٨، ص ٤٨٥ .
- ٤١-المصدر نفسه، ص ٤٨٥ .
- ٤٢- ينظر: ارندت، في العنف، ترجمة ابراهيم العريس، دار الساقى، بيروت، ط ثانية، ٢٠١٥، ص ١٠.
- ٤٣- ينظر: المصدر نفسه، ص ١٤.
- ٤٤- ينظر: المصدر نفسه، ص ١٣.

- ٤٥- ينظر: مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ٣٧ .
- ٤٦- ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٧ .
- ٤٧- المصدر نفسه، ص ٢٠٦-٢٠٧ .
- ٤٨- المصدر نفسه، ص ٣٧ .
- ٤٩- المصدر نفسه، ص ٨ .
- ٥٠- ينظر: ارندت، في العنف، ص ٣٧.
- ٥١- مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ١٢٩.
- ٥٢- المصدر نفسه، ص ١٢٩.
- ٥٣- العكرة، ادونيس، مادة العنف ضمن الموسوعة الفلسفية العربية (تحرير معن زيادة)، مركز الانماء القومي، بيروت، مج الاول، ط أولى، ١٩٨٦، ص ٦٢٦ .
- ٥٤- مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ١٧٤.
- ٥٥- ينظر: ارندت، حنه، اسس التوتاليتارية، ص ٤٤ .
- ٥٦- ينظر: بيلامي، ريتشارد، صعود الجماهير وصناعة نظرية الديمقراطية الحديثة، ضمن كتاب الفكر السياسي في القرن العشرين، مج الأول، تحرير تيرنس بول وريتشارد بيلامي، ترجمة مي مقلد مراجعة طلعت الشايب، المجلس القومي للترجمة، القاهرة، ط أولى، ٢٠٠٩، ص ١٠٤.
- ٥٧- ارندت، حنه، اسس التوتاليتارية، ص ٤٦ .
- ٥٨- ينظر: مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ١١٧ .
- ٥٩- ينظر: لمصدر نفسه ، ص ٥٤
- ٦٠- ينظر: ارندت، حنه، اسس التوتاليتارية، ص ٣٤ .
- ٦١- بيلامي، ريتشارد، صعود الجماهير وصناعة نظرية الديمقراطية الحديثة، ص ١١١.
- ٦٢- إهرنبرغ، جون، المجتمع المدني (التاريخ النقدي للفكرة)، ترجمة علي حاكم وحسن ناظم، المنظمة العربية للترجمة، مراجعة فالح عبد الجبار، ط أولى، ٢٠٠٨، ص ٣٤٣ .
- ٦٣- لويون، غوستاف، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ط أولى، ١٩٩١، ص ٤٥.
- ٦٤- ينظر: مكية، كنعان، جمهورية الخوف ، ص ١٢٩
- ٦٥- المصدر نفسه، ص ١١٩ .
- ٦٦- ينظر: المصدر نفسه، ص ١٣٢ .
- ٦٧- فرويد، سيغموند، علم نفس الجماهير، ترجمة جورج طرابشي، دار الطليعة، بيروت، ط أولى، ٢٠٠٦، ص ٣٣ .
- ٦٨- ينظر: لويون، غوستاف، سيكولوجية الجماهير، ص ٥٩-٦٠ .
- ٦٩- ينظر: مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ٢٨ .
- ٧٠- ينظر: بلان، غيوم سيبيرتان، الفلسفة السياسية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة عز الدين الخطابي، مراجعة جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، ط أولى، ٢٠١١، ص ٢٦٨.
- ٧١- ينظر: مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص ١١٦-١١٧.
- ٧٢- المصدر نفسه، ص ٢٥ .

- ٧٣-المصدر نفسه، ص١٧٣.
- ٧٤- ينظر: المصدر نفسه، ص١٢٠ .
- ٧٥-ارندت، حنه، اسس التوتاليتارية، ص٧٧ .
- ٧٦-بيلامي، ريتشارد، صعود الجماهير وصناعة نظرية الديمقراطية الحديثة، ص١١٥.
- ٧٧-مكية، كنعان، جمهورية الخوف، ص٢٥ .
- ٧٨-ينظر: المصدر نفسه، ص٩٢ .
- ٧٩-ينظر: فوكوياما، فرنسيس، التصدع العظيم (الفطرة الانسانية واعادة تشكّل النظام الاجتماعي)، ترجمة عزة حسين كبة، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٤، ص٣٨-٣٩ .

Politics of Fear Ba'athism Foundations at Kanan Makiya A philosophical approach

Dr. Qais Nasir Rahi

University of Basrah

Basrah& Arab Gulf Studies Center

Abstract :

The search aims to study the politics of fear in the Iraqi state before 2003 by (Republic of Fear: The Politics of Modern Iraq) by Kanan Makiya, who is the most famous studier for the practice of the Baathist regime in Iraq. In this study, the researcher sought to find out what constitutes the different elements of all these practices, and study of Makiya's understanding for some philosophical and literary texts, as: Lafayette for Thomas Hobbes, The Origins of Totalitarianism by Hannah Arendt, The wretched of the earth by Frantz Fanon, and Kafka's (In the Penal Colony). In addition to, the research focused on the role of violence and the masses in activating the politics of fear.

Key words:

Politics of Fear, Lafayette, Totalitarianism, Penal Colony, Violence, The Masses.